بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يَسِّرْ وأعِنْ

مقدّمة

هذا حديث عن حياة سيدنا محمد ﷺ فى بيته، أعرضه فى صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتى أظلهن هذا البيت، وكان لكل منهن أثرها فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكانها فى تاريخه العظيم وسيرته الخالدة.

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث، حتى قرأت ما فى مكتبتنا من مصادر ومراجع لهذا الجانب من حياة الرسول ﷺ، فى بيته، مبتدئة بالقرآن الكريم، والحديث وكتب السيرة، والتفسير، ثم التراجم والتاريخ. وطالعت ما فى خزانتى من كتبٍ للمستشرقين فى هذا الموضوع.

على أنى حين بدأت أكتب، كان جهد محاولتى أن أرجع إلى مصادرنا الأصول، لما أقدم عن حياة أمهات المؤمنين فى بيت النبى ﷺ، كما تمثلتُها بعد أن وعيت الذى قرأت...

وأعترف بأنى شعرت بتهيب حين فرغت من القراءة، هممت معه

بالتراجع عن الكتابة فى هذا الموضوع، وذلك لما ملأنى من إحساس بجلاله ودقته من ناحية، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى.

فهؤلاء السيدات اللواتى عشن فى بيت النبوة، ينزعن جميعا إلى حواء، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء، وتزوجن من بشر اصطفى خاتما للنبيين، يتلقى الوحى من الله عز وجل، ويبلغ رسالته، فأنَّى لقلم أن يصور حياة كهذه، تموج فيها أهواء البشرية فى فيض من النور الأسنى، وتتجاذب فيها الأنوثة - التى نعرف رقتها وضعفها ورهافة وجدانها - تياراتٌ بالغة القوة والعمق، يجذبها بعضها إلى هذه الأرض الدنيا، وتشدها أخرى إلى السماوات العلا، وتتعادل من هذا بشرية سماوية، وسماوية إنسانية!

غير أنى عدت فقدرت أن تراجم سيدات بيت النبوة، رضى الله عنهن، تكليف لى وتشريف، فلست بحيث أنصرف عنها بعد أن اتجهت إليها.

* * *

وإذ صح منى العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه، إذ يبقى مجالٌ لتناولٍ جديد يستوعب مافى المصادر الموثقة عن حياة نساء النبى فى البيت الكريم، ويتمثلها على هَدى دين الفطرة، وبإيحاء البيئة ومنطق التاريخ، فى نزاهة مؤمنة، ودراسة محققة...

وسيرى القارئ أنى اقتصرت فى هذا الكتاب على الأزواج اللائى شرفن بلقب أمهات المؤمنين، ومعهن «مارية القبطية المصرية» التى كان

لها إلى جانب حُظوتها عند المصطفى ﷺ وشرف أمومتها لابنه إبراهيم عليه السلام، أثر واضح فى الحياة الخاصة للبيت الكريم. وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية، لم أتحدث عن السيدات اللائى تزوجهن ولم يدخل بهن، وقد اختلفت الروايات فى عددهن وأسمائهن، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى كتب السيرة النبوية، والأنساب وطبقات الصحابة وتاريخ عصر المبعث...

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للنبى ﷺ، ولا اللواتى عرضن عليه أن يتزوجهن، ولم يتم الزواج[١].

ولست أجهل أنه قد كان لهؤلاء السيدات أثر فى حياته ﷺ، العاطفية والزوجية، غير أن التاريخ المروى، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر، ولا عرف لهن مكانا فى بيته، ومن ثم جاز لى أن أدعهن كى أفرغ للحديث عن أولئك اللائى دخلن حياته ﷺ، مركزة جهدى فى تصوير شخصياتهن كما بدت فى البيت المحمدى، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن إليه إلّا على سبيل التمهيد، ولم أتتبع حياتهن بعده ﷺ، إلا أن تكون إشارة موجزة يدعو إليها المقام.

ذلك لأننى لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبى جمعا لمًّا، ولاأردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص، وإنما قصدت إلى تمثل

---

(١) انظر فى (طبقات ابن سعد: ذكر من تزوج رسول الله ﷺ فلم يجمعهن، ومن فارق منهن، وسبب مفارقته إياهن) ١٤١/٨، ثم (ذكر من خطب النبى ﷺ من النساء فلم يتم نكاحه، ومن وهبت له نفسها من النساء) ١٥٠/٨-١٦٠.

حياة كل منهن فى بيت المصطفى ﷺ، ومكانها منه، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجًا وأنثى... ولا على القارئ بعد هذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخى لسنة وفاتها، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها بعد زوجها، فليلتمسه فى غير هذا الكتاب إذا شاء، وحسبه منى أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة، ما يضىء تاريخها كله.

وأود بعد هذا كله أن يطمئن القارئ إلى أننى تحريت جهدى فى مادة الكتابة أصالة المصادر، ثم كان لى بعد ذلك، منهجى فى التناول وأسلوبى فى الأداء ونسق العرض.

وعسى أن أكون قد وفقت إلى قريب مما حاولت من تقديم الحياة الزوجية فى بيته ﷺ، بما ينبغى لى من محض التقوى والإخلاص، وصدق التقدير لجلال الموضوع وأمانة الكلمة.

﴿وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ﴾ .